القدرات المعرفية والتعبيرية للشباب في دلالاتها النفسية والاجتماعية: نماذج لخطاب «غير شكل»

نادر سراج(*)

مقدمة

لا مندوحة من القول إن اللغة التي تنتشر عادةً على امتداد مساحة جغرافية شاسعة، لا يمكن أن تكون متجانسة في ذاتها ومنطوقة بالطريقة نفسها من مختلف مستخدميها. بل هي تعرف اختلافات مناطقية واجتماعية وجيلية، نتيجة طبيعية لحراك مستخدميها، وتنوّع منابتهم الجغرافية، وتطور احتياجاتهم. وهذه المسلّمة من شأنها أن تؤكد على تنوع الأنماط اللغوية وعلى مبدأ حركية اللغة؛ مثلما على خصائص الأصالة والابتكار عند شريحة معينة من مستخدميها ونعني بهم الشبان، وشبان الضواحي منهم تحديداً، الذين يتأثرون بما يتوقعونه منها، أو بما يعتقدون أنهم يعرفونه عن العالم من خلالها.

لم ننصرف في هذه الدراسة إلى الاستغراق التأملي أو الذاتي في عرض مسألة علاقة الجيل الشاب بلغته الأمّ، أو باللغات الحية، اقتراضاً أو اختصاراً أو اقتصاداً لغوياً. بل أعطينا الأفضلية للتحليل التزامني لنماذج من مدونتنا المتضمنة معطيات لغوية شبابية جمعناها عن طريقي السمع والبصر

(*) أستاذ اللسانيات، في الجامعة اللبنانية.

وتتمحور حول مواضيع تثار في عوالم الشباب من الجنسين، وتستقطب اهتماماتهم الآنية.

لم نغمط الصحافيين والإعلاميين حقهم من الرصد والمتابعة، فإسهامهم أساسي وباعهم طويل في بثّ «الروح الشبابية» في لغة الصحافة المكتوبة وفي برامج الإعلام المرئي؛ فهم يرفدون لغة التخاطب اليومي بمقترضات وتعابير منسولة من طبيعة مهنهم، تنتقل لاحقاً إلى صفوف الشباب. والعكس صحيح أيضاً، فهم ينقلون إلى مشاهديهم لغة الحياة أو لغة الشارع بعد إعادة توليفها.

أما معدّو الإعلانات التجارية فباعهم طويل في «اقتناص» تعابير شبابية تسري على ألسنة العامة، وفي إعادة توظيفها بذكاء، في حملاتهم التسويقية. وآخرها تعبير «مش أكلة» الذي أتينا على ذكره في البحث بصيغه المختلفة التي لا تخرج عن نطاق الدلالة الأساسية: «بتتاكل»، «مش أكلة». فقد استعيدت هذه الصورة المجازية الشبابية في إعلان ترويجي (٢/١٢/٢٠٠٨) بتوقيع «وزارة الداخلية والبلديات وكل المواطنين». يحث الإعلان المواطنين على الالتزام بوضع حزام الأمان لدى قيادة السيارة لأن «محضر الضبط» أو الغرامة التي ستفرض عليهم جرّاء المخالفة «مش أكلة» طيبة ومشتهاة!!

هذا المثل هو خير شاهد على الفرضية التي أدرجناها في المتن، ومفادها أن بعض التعابير الشبابية باتت تمتلك مشروعية وقدرة إبلاغية وصدقية مضمونية، تؤهلها كي تأخذ طريقها نحو الرواج، بعدما استقطبت اهتمام الصحافيين ومعدّي البرامج التلفزيونية والمعلنين. هذه التعابير التي ينتجها الشباب عادةً لم تعد مستهجنة أو مسكوتاً عنها، بل تآلفت معها الآذان لدرجة أنها أمست مقبولة باعتبارها مادة استهلاكية المنحى توظف في مجالات دعائية وتسويقية وإرشادية كما هو حال التعبير المرافق لهذا الإعلان المتعلق بسلامة السير.

في المنهج والإشكالية

إن مقاربتنا للعلاقة ما بين النسق التعبيري الكلامي الشاب، وفضائه الثقافي الاجتماعي، لسانية المنحى. اللسانيات هي إذاً مدخلنا إلى اكتناه الحقيقة اللغوية المعيشة. والتحليل النفسي هو بدوره المفتاح المعرفي الذي يتقاطع ويتبادل التأثّر

والتأثير مع اللسانيات في بحثنا هذا. ونبادر إلى القول إن التعبير الشبابي الذي نعالجه في هذه الدراسة في مختلف وجوهه واستخداماته، بما فيها المقترضة، المعرّب منها أو المترجم، مأخوذ هنا على النحو التالي:

- مدوّنة قائمة بذاتها،
- بنية عامة مكتفية بذاتها،
- تعبير أو علامة أو أيقونة index, indice, icône.
- محدِّد لغوي اجتماعي لانتماء الفرد وتماهيه مع عصبوية تعبيرية.

نحن إذاً بصدد قراءة هذا التعبير، عبر مختلف مراحل تجلياته، محترمين بنيته، ومتعاملين معها كما هي، بمستوياتها المتعدِّدة غير المسطَّحة وغير الخطية. وسنتوقف تحديداً عند الدلالات النفسية والاجتماعية لهذه التعبيرات الشبابية.

بين اللسانيات والتحليل النفسي

في خمسينات القرن المنصرم أحدثت اللسانيات ثورة في الفكر والتحليل كما في الاكتناه والفهم. وهي علم يطلّ على علوم عديدة، ويغذي ميادين معرفية كثيرة. كما نجحت اللسانيات في تطوير النظر الفلسفي عينه؛ بل وإن فلسفة اللغة، التي هي اليوم حقل فلسفي شديد التأثير والاستدعاء، تدين للسانيات بالكثير والعميق إنْ في مجال إمكان التجدّد والتطور أم في مجال تقديم المناهج والطرائق.

بيد أنّ خطاب اللسانيات يتلاقى مع خطاب التحليل النفسي: هما يتعاونان، ويتداخلان ويتبادلان. كلّ منهما مرتكز على قول في الإنسان، وفي النصّ، ذي مستويين. فالتحليل النفسي، كاللسانيات تماماً، متأسِّس على مبدأ المعنى الكامل.

وللتذكير فالعالم اللساني الأميركي، نوام تشومسكي، رائد مدرسة اللسانيات التوليدية التحويلية، يعتمد مستويين لدراسة الجمل مميِّزاً ما بين بنيتين سطحية وعميقة، الأولى تظهر عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلم، أما الثانية فهي القواعد التي أوجدت هذا التتابع، أو البنى الأساسية التي يمكن تحويلها لتكوّن الجمل.

هذا المبدأ التحليلي النفسي يمتلك القدرة والخصائص اللازمة لمساندة

اللسانيات في قراءة أفضل لهذه التعبيرات. أتذكّر هنا عطاء لاكان[1] (Jacques Lacan) المرتكز برمّته على المزاوجة بين التحليل النفسي الفرويدي والخطاب اللساني. فقد كانت جِدّة لاكان، أو تأثيره وتميزه، ماثلةً في كونه لجأ للسانيين كي يعيد تفسير فرويد، وكي يجدّد سلطة فرويد ويزيل القراءات الملتبسة، ويزيل أيضاً تلك التي رأى أنّها أساءت للفرويدية ولم تلتقط روح المعلم المؤسِّس. ولكن الباحث اللساني الذي يؤمن بالالتقاء والتقاطع مع التحليل النفسي، قلّ أن يوافق على اللاكانية.

وما دمنا الآن نعالج مسألة التداخل والتعاون بين اللسانيات والتحليل النفسي، فبإمكاننا تناول «التعابير الشبابية» التي وصفناها، بعد التقميش والتبويب، وبعد الفرز ثم الجدولة، تناولاً وتتبعاً لمخطط (schéma) يوحّد ويعيد المتفرّق إلى أساس واحد، أي إلى الجهاز المنتج المشترك. وهنا نتساءل: هل يمكن ردّ تلك المفردات والمصطلحات والتعابير المدروسة بأغلبها إلى مجال محدّد وتحديداً إلى الجنس؟ أيكون الجنسيّ أساس خطاب شبابنا ومنتوجهم النصّي؟

قبل الجواب عن هذا السؤال الجوهري نعرض الرؤية التحليلية النفسية وطريقتها في دراسة موضوعنا عن النصّ الخاص بشريحة ثقافية اجتماعية دائبة الحراك داخل مجتمعنا اللبناني.

المعطيات اللغوية المجموعة في المدونة

معطياتنا الميدانية التي جمعناها على مدى ستة أعوام (١٩٨٧ – ١٩٩٠ – ١٩٩٢)، شملت حوالى الألف مفردة وتعبير وكلّها تمتلك دلالاتها الاجتماعية والثقافية وتختزن إيحاءات، وتتكئ على مفاهيم جنسية، أو اقتصادية أو فنية أو أخرى عسكرية. فعلى سبيل المثال لا الحصر لاحظنا كيف أن بعض الشبان كانوا يتداولون في معرض إشارتهم إلى الجنس اللطيف تسمياتٍ وتعابير قديمة ـ جديدة، تشيع في صفوفهم، ويتباهون، في حلقاتهم المقفلة في استحضارها مثل «طشمة»، و«فرس»، و«كذا مذا»، و«تحفة»[2]، و «شَلْخَة» وتعني فتاة ذات قوام ممشوق ووجه جميل

(١) عالم فرنسي (١٩٠١ - ١٩٨١) اهتم بمسائل التحليل النفسي وله دراسات وكتابات معروفة في هذا الموضوع، وتحديداً في العلاقة بين التحليل النفسي واللسانيات.

(٢) ورد هذا المصطلح ذو المنحى الساخر في عنوان «الوزير التحفة»، صحيفة الشرق، ٢٠٠٨/٩/٩.

ومنظر مثير، وبعضهم يستخدمها في جملة مفيدة «الشلخة هي التي جابته جورة»[٣]! و«تعقيد»، و«حريم»، و«عندها مؤهلات»[٤]، و«طبيعية»، و«خام»[٥]، وسواها... وإذا ما أردنا أن نسترسل أكثر فأكثر هناك تسميات معروفة استخدمت من قِبل أجيال سبقتهم أو بيئات ثقافية مجاورة مثل «حرماية»، «شقفة»[٦]، «إنتاية»، «الجوّ»، و«لقطة»[٧]، وسواها مما استعادها الشباب وأعادوا استخدامها في سياقات ودلالات أخرى. كما لاحظنا خلال التسعينات أن الدلالة على الجنس الآخر كانت تتم عند البعض باستخدام مفردات مرمّزة تتصل بأجواء الحرب الأهلية التي عصفت بالبلاد قرابة خمسة عشر عاماً وتسرَّبت بالطبع إلى لغة الخطاب اليومي، وتركت بصماتها عليه. من هنا تناهت إلى الأسماع تعابير مثل: «حارق خارق، متفجِّر» (لإبداء الإعجاب بالفتيات، وهي في الأصل نوع من الرصاص)، «بلّش القصف» (تقال عند بداية حدوث مشكلٍ ما) «عشوائي» (حديث غير مفهوم)، «بتقنِّص عن بو جنب» (عشوائية في حديثها)، «صاب الهدف» (استطاع الكلام مع فتاة)، «شباب كانوا ورا مدفع» (مقاتلين سابقين)، «طحّيش» (جريء، مقدام)، «مدشّمة» (سمينة)، «بازوكا» (قوية الصوت)، «مخلّفات حرب» (لا أهمية لها)، «قصة سياسية كاملة» (جميلة جداً)، «حقل ألغام»، «باتريويت ما بيطالها» (طويلة القامة)، «الوضع عندها متدهور»، «معلاية السواتر» (خلاف شديد)، «عَمْ يحكي رشق» (سريع)، «مروكب»[٨] (يتلعثم

(٣) رصدنا هذا المصطلح والجملة الناشئة عنه في تحقيق صحافي يعود للعام ٢٠٠٤ بعنوان «لغة جديدة للشارع خاصة بالفتيان»، صحيفة البلد، ٢٠٠٤/٢/١٩.

(٤) من الشائع في فرنسا أن تُنعت الفتاة الفائقة الجمال والمتناسقة القوام بأنها: «femme très belle = bien faite = a un beau chassis».

(٥) مصطلح «خام» معروف في البيئة المصرية وهو يرد في كتاب الكنايات العامية المصرية لأشرف عزيز، دار الحضارة للنشر، ٢٠٠٥، ص ٥٥. وهو كناية عن أن الشخص ما زال على فطرته لم يتعلّم الخبث والمكر والدهاء.

(٦) يُستعاد المصطلح في العام ٢٠٠٩ في معرض الكلام عن الفنانة نانا بطلة فيلم «جنس على كاسيت» مع «عنتر زمانو» خليل، إذ تخاطبها كاتبة الخبر: «أنتِ لست شقفة من شقيف». مجلة نادين، ع ١٤٦٦، ٢٠٠٩/٢/٢٣.

(٧) - يرد المصطلح أيضاً بصيغته الإنكليزية «catch»، وعرّب «لقطة»، في فيلم أميركي عرض على قناة Hallmark في ٢٠٠٢/١٠/١٢.

(٨) يستعاد المصطلح بصيغة فعلية في حوار تلفزيوني (مسلسل خان الحرير، ١٩٩٦/٤/٩) على لسان احد الممثلين «لما بتروكب معي، بصير متل البارودة العثملية».

في كلامه)، «رصاصة تشيكية» (فتاة قوية وصامتة)، إرهاب» (فائقة الجمال)، «بتحكي طلقة طلقة» (فتاة كلامها متقطع وغير مسترسل)، بتحكي رش (أي كلاماً سريعاً وغير مفهوم، وحالها كحال الرشَّاش الآلي)، «كاسحة ألغام» (كبيرة الأرداف)، «مدرّعة» (ذات صدر كبير أو بدينة)... وما إلى هنالك من تعابير موحية تشي بالتأثيرات التي خلفتها فترات النزاع وانتشار السلاح وأجواء القتال على النسق التعبيري عند بعض الشباب، المتأثر إلى حدٍّ ما بأجواء المليشيات على اختلاف مشاربها وتوجهاتها.

والهوس الآخر المُلاحظ بين شبابنا والمنعكس في لغتهم اليومية هو هوس السيارات؛ أعني أن بعض شبابنا اللبناني نقل اهتمامه من المركبة إلى صديقته الحميمة (petite amie) أو فتاته المفضلة (girlfriend)، فصار يُسقطُ عليها كلّ محبّته لسيارته وكلّ اهتمامه بسيارته؛ كأن يطلق عليها تعابير تعود تحديداً لهذا العالم وتتراوح بين «double carburateur»، (أي ناشطة جنسياً) و«بتلبّي عَ première»، (أي تتجاوب بسرعة)، و«بتسحب» (elle fonce) (سريعة الانجذاب)، و«فيتيس أرض» «vitesse au plancher»، (أي قصيرة القامة) و«نيكل على النيكل» (côte à côte)، (للدلالة على فتاة وشاب لا يفترقان)، و«يللي دمّك فالفولين» (quelqu'un de visqueux) (غليظة)، و«إلها زوايد» (أي تتمتع بمواصفات جسدية لافتة)، و«٦ سيلاندر» (عريضة الردفين)، و«دركسيون زيت» (أي فتاة ذات صدر أمْسح)[٩]، و«عيونها مثل ضوّ الكميون»، (للاستهزاء)، و«جايي لفّ» voiture avec des rondeurs (سمينة)، أو «صوتها مثل الأشكمان المفخوت» (أي خشن وذكوري المنحى)[١٠]، و«خارقة»[١١] (أي كاملة الأوصاف)، وهذه الأخيرة قد تُستخدم لإبداء الإعجاب أو للذَّمّ، ودائماً وفق السياق وطريقة النطق، إلخ...

هذا الخطاب الاستفزازي كان يستثير الجنس اللطيف الذي كان يلجأ للمواجهة بتعابير مضادة، ولكن من «العيار» نفسه. فالشاب قد يبدو للفتاة «عقله

(٩) Poitrine plate.

(١٠) أنظر «Interférence de l'arabe et du français», par Nader Srage, Actes du colloque organisé à Beyrouth en 2002 par ALEF, FIPF, p. 103 - 112.

(١١) يرد المصطلح بالطبع في إعلان مبوّب لبيع سيارة، «كاديلاك خارقة» «ممتازة» «لافتة للنظر»، صحيفة البلد، ٢٠٠٤/٢/٢٤.

مكربج»[١٢](cerveau grippé) (أي عنيد)، أو «براغيه رخوة» (طائش)، أو «مجنّط»[١٣](à la jante) (طفران)، أو «الشاسّي مفتول» (chassis défoncé) (خفيف)، أو «فتحة بالسقف» (بلا عقل)، أو «بخّاخ» (كناية عن الإعجاب)، أو «ضَوّا راسو»[١٤] (بات على شفير الانفجار)[١٥]، أو مبَوْمَر» (point mort)[١٦] أو «مرَوْكَب»[١٧]، (معطل القدرات)، أو «باطون مسلح» (شاب رياضي)، أو «فيوزات عقله طاقين» أو «ما في ولا فيوز»، أو «بلا فيوز»، أو «فيوز مطفي» (غير متَّزن)، قصة حياته عَ كتافه (أي مقاتل سابق أو خريج ميليشيات)، «حكيو رشق»، بيقوص كاتيوشا على الناس (كلامه مؤذٍ وغير محتمل)، أو «ثقافته أكياس رمل»[١٨]، وسواها. سيل المصطلحات هذا تميز بالتباس الدلالة بسبب تذبذبها القيمي بين عالمي البشر والجماد، وتأرجحها بين مجالي الإعجاب والسخرية!

ولا نغفل هنا أن هناك مفردات راجت أيضاً وتعكس بعض الاتجاهات السياسية والفكرية بشكل ساخر: «مؤخرة ثقافية»، «مؤخرة رجعية»، «صدر تقدمي»، «قصة بَدْها الطايف تا يحلها» وهذه الأخيرة راجت في مطلع التسعينات بعد توقيع اتفاق الطائف في العام ١٩٨٩.

ويمكن القول إنّ هذه الظاهرة اللسانية الاجتماعية الجديدة تعكس وجهاً من وجوه الدينامية اللغوية السائدة بشكلها الشعبي الأبسط والأبلغ تعبيراً عن روحية الجماعة اللغوية الشابة. وهي في الواقع تندرج ضمن أشكال التعبير المستجدّة التي تنتشر في غير مجتمع لغوي. الظاهرة موجودة ومدروسة في بعض بلدان الغرب،

---

(١٢) تستعاد الصورة المجازية في العام ٢٠٠٩ بصيغة مشابهة «كَرْبَج راسو»، في عنوان لرسم كاريكاتوري مدرج ضمن روزنامة رسوم كاريكاتورية صادرة عن دار الخياط الصغير. (Abou Ras Strip Tease, by Déborah phares)

(١٣) سجلنا في ختام العام ٢٠٠٨ ورود هذا المصطلح في إطار تحقيق عن «لغة الشباب اللبناني الجديدة... لا عربية ولا أجنبية»، صحيفة اللواء، ٢٠٠٨/١١/٢١.

(١٤) لا يزال المصطلح رائجاً، وقد صادفناه في روزنامة العام ٢٠٠٩ من إنتاج «الخياط الصغير». (Abou Ras Strip Tease)، المرجع نفسه

(١٥) في العام ٢٠٠٩، يُستعاد التعبير، جزئياً وبشكل إيجابي هذه المرة، في إعلان تجاري عن محترف Print shopÀ حيث نقرأ تعليقاً على لسان الزبون: «ضوّت عَ كبير».

(١٦) ومعناها «نقطة العطالة» في [السيارة]، قاموس لاروس المحيط، بسام بركة، أكاديميا، بيروت ٢٠٠٧، ص ٥٦٤.

(١٧) صحيفة الوسيط، ٢٠٠٩/٨/١٣.

(١٨) هذه الصورة المجازية وردت مشافهة على لسان إحدى الفتيات، وقد استعيدت كعنوان لتعليق صحافي منشور في مجلة النقد، العدد ١٧، ٢٠٠٠/٨/٧.

موجودة في فرنسا[١٩] وفي إيطاليا[٢٠] وفي ألمانيا[٢١]، وقد نشرتُ حولها بعض الدراسات والكتب، ولكنها غير ملحوظة في مجتمعنا وعلى حدّ علمنا. وعندما كلّفت بعض طلابي في مطلع التسعينيات باستقصاء معالم هذه الظاهرة، وبجمع المعطيات لإعداد دراسة علمية عنها، قوبلت احتكاكاتهم الأولى بأبناء مجتمعهم بالدهشة والسخرية، وصولاً إلى الاستنكار والاستهجان. ولكنهم مع ذلك تابعوا مراحل التحقيق الميداني، وتوصّلت وإياهم، وبخاصة طلاب السنة الثالثة إجازات في الجامعة اللبنانية ـ كلية التربية، الفرع الأول، إلى نتائج مؤشرة ولافتة نستعرض معطياتها بغية استقراء تشكُّل معالم هذا الخطاب الشبابي مضموناً وشكلاً، في التسعينيات، والتوقف عند بضعة استنتاجات أولية تتناول مسوّغات نشوء هذه اللغة المحاذية وكيفيات تطور خطابها المعلن .

هذه الإطلالة من شأنها أن تمهِّد لما نحن بصدده أي معاينه استراتيجية التواصل الحالية لشبابنا في مطلع الألفية الثالثة والتي تتسم بنزوعهم للإفادة من إطلاعهم على التقنيات المعلوماتية الحديثة وإلمامهم باللغات الحية. وهذا الأمر يظهر جلياً في أشكال تواصلهم المعتمدة على ثوابت وطرائق تتماشى مع طبيعة حراكهم الاجتماعي، ونعني بذلك لجوءهم المطرد إلى صيغ النحت واللصق والاقتصاد والاختصار والاقتراض على غير صعيد، وفي مختلف المقامات التواصلية.

تصنيف التعابير دلالياً

تسهيلاً لضرورات العمل الإجرائي والتحليلي، تمّ تصنيف التعابير المجموعة إلى الحقلين الدلاليين الرئيسيين التاليين:

(١٩) A- Henriette Walter, lexique de l'ouvrage Les mouvements de mode expliqués aux parents, H. OBALK, A. SORAL et A. PASCHE, Paris, Robert Laffont, 1984, p. 367 - 398.

B - Henriette Walter, L'innovation lexicale chez les jeunes Parisiens, Actes du 10ème colloque international de linguistique fonctionnelle (Québec, 7 - 13 août 1983), Université Laval, 1984, p. 177 - 181.

(٢٠) - Il Neo Italiano, Le Parole Deglianni Ottanta, Sebastiano Vassalli, Zanichelli, Bologne (Italie), 1ère édition, 1989.

Jean Pierre Goudailler, Comment tu tchatches! Dictionnaire du français contemporain des cités, Maisonneuve & larose, Paris 2001.

(٢١) - Voll Konkret, Das neueste lexikon der jugendsprache, Hermann Ehmann, Beck'sche Reihe, 2001.

أ- العلائقيات:

- النبذ الاجتماعي (سخرية، تحقير، ذمّ...).

- التحبّب والتودّد (تقرّب، تغزّل، إعجاب...)

ب - العوامل الموضوعية في الفضاء النفسي الاجتماعي (عوالم الحرب، السياسة، المركبات والأدوات، الحيوان، النبات، المائدة، السينما والنجومية والأرغو الثقافي...).

إلى جانب هذين الحقلين، تمّ لحظ حقول دلالية فرعية لفتت انتباهنا نظراً لأهميتها، ولصلتها بشكل أو بآخر بالحقلين الرئيسيين، ولكنها لم تفرد على حدة، بل صنّفت ضمن الحقول الأساسية.

توزّع التعابير

أ- ٣٣،٨٪ تعابير تتعلق **بالفضاء النفسي الاجتماعي**، وتتوزع فرعياً إلى:

١١،٤٪ عسكريات (١١٠)، ٦،٥٪ مركبات وأدوات (٦٣)، ٧٪ أرغو ثقافي (٦٨). ٢،٤٪ عالم الحيوان (٤١)، ١،٨٪ سينما ونجومية، ١،٧٪ عالم المائدة (١٧)، ٠،٧٪ عالم النبات (٧)، ٠،٥٪ عالم السياسة (٥).

ب- ٦٦،٢٪ تعابير تدخل في باب **العلائقيات** بمختلف سياقاتها الفرعية.

أما بالنسبة للتعابير ذات **الإيحاءات الجنسية**، فهي تتداخل في الحقيقة مع تعابير الحقلين الرئيسيين، تماماً كما مع تلك العائدة للحقول الفرعية التي سبق ذكرها.

التحليل النفسي

هذا المنهج هو واحد من جملة المناهج التي استندنا إليها لقراءة متأنية للنتاجات اللغوية الشبابية. اعتمدنا المنهج التحليلي النفسي إذاً لتفسير التعابير المتداولة بين شبابنا والتي تعكس طبيعة علاقتهم بعضهم مع البعض الآخر، من جهة؛ ثمّ تفاعلهم مع المحيط أو مع ما أسميناه الفضاء النفسي الاجتماعي، من جهة ثانية. ولا شك في أن التحليل النفسي قدّم لنا معلومات ثمينة عن البنى التحتية لتلك

«الأزياء»[٢٢] أو «الصكوك النقدية» التي أشبّه بها التعابير الشبابية إذا صدق القول؛ وساعدنا بالتالي أن نكتشف المحجوب والمكبوت واللاواعي.

وبالعودة إلى موضوعنا، أشدّد على أن ذلك المنهج التحليلي النفسي تعقّب وتحرّى، وغاصَ، وأظهر لنا ما لا يقوله جهراً منتجو ومتداولو هذه «الصكوك التعبيرية» الناجزة؛ بل وأبرزَ لنا ما لا يقوله أو يعرفه المستهلِك لتلك الرسالة بحسب المصطلح المعروف في اللسانيات. ونورد بضعة أمثلة على سبيل المثال لا الحصر: «باتريوت ما بيطالها»، (أي صعبة المنال)؛ «بريوش»[٢٣] (أي النقود في لغة الشارع)؛ «رامبو» (متهور ومدَّعي شجاعة)؛ المقرّرات[٢٤] (أي الفتيات، والصورة المجازية استخدمها الممثل سعيد صالح في مسرحية «مدرسة المشاغبين» للكلام عن الفتيات في لبنان).

نموذج لصورة الأستاذ بعيون طلابه

وكي ندخل القارئ في أجواء هذا العالم التعبيري الشبابي، نتوقف بعض الشيء عند التجاذب الدلالي الحاصل في توصيف صورة الأستاذ من قبل طلابه وطالباته؛ فثمَّة من ينقل العلاقة بينهم إلى مستوى الزبائنية ويشكِّك في مقولة «الأستاذ سيّد صفه» فيتساءل: الطالب زبون... والأستاذ؟![٢٥] ويورد مثلاً على استغلال الطلاب للنظام الأميركي الذي يسمح لهم باختيار «أستاذ فعَّال». فالطرفان يستغلان هذه الثغرة، ويبحث الطلاب عمَّا يصطلح على تسميته «أيزي آي» (Easy A)

(٢٢) بالمقارنة مع التوجّهات الغربية في هذا الميدان، والفرنسية منها تحديداً، أشير بتواضع كليّ إلى توارد خواطر، لا بل أسبقية، في مجال توصيف هذه النزعة التعبيرية المستجدَّة بِـ"الأزياء». فقد أطلقت هذه الصورة المجازية في ١٩٩٣/٥/٧ خلال محاضرة ألقيتها في طرابلس، وصادفت لاحقاً، بعد ست سنوات، الصورة المجازية معدَّلة في عنوان مقالة لعضو الأكاديمية الفرنسية برتران بوارو دلباش (Bertrand Poirot - Delpech) اعتبر فيها هذه التعابير الدخيلة (المتأمركة خصوصاً) «الكلام الجاهز» à parler Le prêt.

(٢٣) ورد المصطلح على لسان ميليشياوي سابق، عاطل عن العمل، من سكان منطقة حارة حريك. أنظر تحقيق «محترفو البطالة في زواريب الأحياء»، صحيفة السفير، ٢٠٠٠/١/٧. ومن باب المقارنة، أذكر أننا كنَّا، في الستينيات، نطلق هذا المصطلح على نوعٍ من الحلوى الشعبية.

(٢٤) وردت الصورة المجازية في تحقيق فني عن «عجرفة النساء في مصر»، صحيفة الحياة، ٢٠٠٤/١/١٠.

(٢٥) مقال منشور في صحيفة الأخبار، ٢٠١٠/١/١٢.

(أي الأستاذ الذي يضع العلامات الأعلى (A) من دون عناء[٢٦]. وتكرّ سبحة التعليقات الساخرة التي تأتي بشكل صورة مجازية مثل: «إجا شايل الزير من البير»[٢٧] (صورة مجازية ساخرة للأستاذ بلسان طلابه)؛ «سوبر ماركت»[٢٨]؛ (صورة مجازية للأستاذ الذي يحمل عدّة إجازات جامعية ويفاخر بعرض معارفه)؛ «عضمه طري» (أستاذ شاب غير متزوج، أو مرتبط عاطفياً، أي أن في وسع تلميذته المغناج أن توقعه في شباكها)[٢٩]؛ خالص كازو (مطفي وغير قابل لأيّ ردّة فعل إيجابية)؛ «إستاذ طفية» (لا حيلة له ولا حول له)؛ «أستاذ وجيه بيضون»[٣٠] (صورة مجازية لمن يسعى لتبييض الوجوه). هذا في لبنان، أما في بيئات عربية أخرى مثل سورية، فتتوزع ألقاب عديدة على الأساتذة «المخضرمين» في بعض الكليات، مثلاً، «ملك الكيمياء»؛ و«إمبراطور القانون»؛ و«لورد التشريح»[٣١]. يبدو أن في مصر ثمّة عبارات استهزاء تلحق بالمعلمات عبر رسائل التكنولوجيا، وتجعل «الشقاوة» أكثر إيذاءً وأوسع انتشاراً، مثل عبارة «خنزيرة» التي ترافق صورة ملفقة لـِ «مسّ ماريا»[٣٢].

والملاحظ أنَّ بعض الصيغ المستخدَمة في البيئة اللبنانية يحمل دلالتي الإعجاب والسخرية معاً مثل: خرطوش فردك[٣٣] (تعبير عن تقديم الطاعة والولاء) ويستخدم على سبيل المزاح والتفكه بين الأستاذ وطلابه.

---

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) راجع بحثنا المذكور سابقاً «لغة الشباب بين آثار الحرب وتباشير السلام»، أعمال مؤتمر «سلام واستشراف: لبنان آفاق ٢٠٠٢»، ص ٢٢٧.

(٢٨) يبدو أن تداخل الفضاءات الاقتصادية الاستهلاكية وتلك الثقافية عرف طريقه نحو وسائل الإعلام. فقد رصدنا عنواناً لتعليق عن أحد رموز «الفلاسفة الجدد» الفرنسيين، برنار هنري ليفي (BHV) باعتباره «المثقف السوبر ماركت» وسبق أن أطلقت عليه الصحف الفرنسية «ليفي» '(BHV) مقارنة بسلسلة المحلات الكبيرة، بمعنى أنه تاجر يبيع كل شيء، صحيفة السفير، ٢٠١٠/٢/٢٠.

(٢٩) تعبير مستجدّ ورد على لسان مسؤول الإعلام في نقابة المعلمين إدغار أبو رزق، تحقيق منشور في نهار الشباب، ٢٠٠٨/٥/٨.

(٣٠) ورد المصطلح في تحقيق عن «شباب على سجيتهم»، صحيفة المستقبل، ٢٠٠٣/١٠/٣٠.

(٣١) وردت الألقاب في تحقيق بعنوان «طلاب سوريون يتحدثون عن أساتذتهم بمصطلحات سياسية»، منشور في صحيفة الحياة، ٢٠٠٣/١٠/٢٨.

(٣٢) صحيفة الحياة، ٢٠١٠/٣/١٥.

(٣٣) تعبير يقال للزعيم من قِبل «زِلْمه» أو أنصاره؛ ومعناها أن بإمكانه التصرف بهم «كيفما يشاء». وهذا التعبير كان يُستخدم في فترة ما قبل السبعينات لتعظيم شأن المقصود بالكلام.

وظائف التعابير

وبالعودة إلى الفوائد أو الإيجابيات التي وفَّرها لنا المنهج التحليلي النفسي، علاوة على كشفه لما هو قابع في الثنايا، وإبرازه لوظيفة «الصكوك النقدية» التي سعينا هنا كي ننفذ إلى أبعادها المعتمة، نقول إنّ استعمال تعبير تبخيسي مثل: «يا مخنّت» يكشف عن عالم واسع من القيم، وعن ثقافة من نوع معيَّن، تكشف عن خطاب في الوجود، عن نظرة للمرأة باعتبارها المؤنث الجنسي؛ كما ترشدنا أيضاً إلى قيميات (axiologie)، وإلى طرائق في المعرفة تعطي للأنثى منزلةً استطعنا أن نعيها، ومن ثمّ تجاوزناها إلى حدٍّ ما، أو نحن في طريقنا إلى ذلك.

وفي استعمالِ تعبيراتٍ أخرى، نجدُ أن المعبِّر يُفرج عن مكبوتات، ويحقِّق تكُّيفاً مع نفسه، ويستعيد اعتباره لذاته. وكثيرة هي «الصكوك» التي تؤمِّن لنا شعوراً وهمياً أو لفظياً، موقتاً أو ناقصاً، بالتفوق وبتأكيد الاعتبار الذاتي للذات. أما التعابير التي تسفِّلُ الآخر، فهي تعيد لمستعملِها إحساساً ومكانةً، بل ونرجَسةً للذات، وتكون في الوقت عينه تبخيسية للخصم برأي مرسِلها.

بتلك الوظائف، يتحقق تكيّفٌ مع الذات ومع الحقل/الفضاء ليس فعلياً ولا هو إيجابي. إلا أنه كان دائماً موجوداً في حياة الإنسان، وهو في آنٍ واحد موقتٌ، وغير مباشر، ومتطوّر على الدوام. وأحياناً كثيرة يثير هذا التكيُّف أسئلة عن المستوى الأخلاقي لتلك التعابير، ولتلك الأواليات التي هي في نهاية المطاف دفاعية لا بل استثارية لخطابٍ مضاد، وبلا مقابل!

نقد المنهجية التحليلية النفسية

ونحن بصدد تحليل التعبير الشبابي في مختلف تداعياته، وخاصَّة في معرض اقتراضه من اللغات الحية، أو في اعتماده للتعابير اللغوية العربية، أو في تعديله للبنى القائمة؛ يصعب علينا قبول خطاب التحليل النفسي برمَّته، بمبالغاته وشطحاته الفرويدوية، بلا نقد وبلا تطوير. فتداخل العلوم الإنسانية في معاينة الظاهرة الواحدة مسألة لا جدال فيها، وهي تسمح لنا بقراءة علمية وبتحليل متعدّد الجوانب يسلِّط الضوء على كنه الظاهرة وعلى كيفيات دراستها والخلوص منها بنتائج علمية.

لذا نقول إن ردّ أغلب عبارات الحرب والصدام إلى العامل الجنسي، وردّ العلائقية كلها إلى مخطط جنسي، أمران يقول بهما ويقبلهما التحليل النفسي، إذ لا

شيءَ كثيراً يفلت من إحالته إلى رموز جنسية. أذكر بسرعة هنا وعلى سبيل المثال فكرة تقليص الأشياء ذات الشكل المجوّف، وذات الوظيفة التي تُملأُ، وتحتوي وتَنقل وتَختزن؛ أو تقليص العلب والحاويات إلى رمز أنثوي. وللتذكير، فالمسألة معروفة في تراثنا اللغوي العربي، إذ يذكر **لسان العرب** (١٢: ٦٤ – ٦٥، مادة قَرَرَ) أن العرب تسمي المرأة القارورة وتكنّي بها (...) واحدة القوارير: سُمّيت بها لاستقرار الشراب فيها. ولكنني استدرك بالقول هنا إننا في ميدان التحليل اللساني أكثر منَّا في ميدان التحليل النفسي. ومن باب أولى القول إنَّ المبالغة في تحميل المضامين الكثيرَ من الدلالات خطرة سيّان أتت من الإناسة أو من التحليل النفسي أو من اللسانيات. وبالرغم من تحفُّظنا، فلا بأس من الاعتراف أننا بحاجة إلى هذه الميادين العلومية المتداخلة كي نفهم موضوعنا ونكتشف أبعاده ولا سيّما المستور منه والمدفون أو المصرّح عنه مواربةً على ألسن الجيل الشاب.

وباعتبارنا من «أهل البيت اللساني» نضيف بالقول إن مدرسة مارتينه الوظيفية بقيت مقفلة في ميدان المشترك أو المتداخل الاختصاصات الإنسانية؛ صحيح أنها أسَّست وفسّرت الوقائع اللغوية المعيشة، ووصفت الألسن المستخدمة، واعتبرت نفسها لسانيات العرف والواقع؛ ولكنها لم تكمل مسارها في مجال التقاطع مع الحقول المعرفية المتداخلة (التحليل النفسي، الفلسفة،...)، في حين أن أمثال لاكان انتبهوا إلى الإمكانيات والمعطيات التي توفِّرها اللسانيات؛ فأقبلوا عليها ووظَّفوها في ميادينهم البحثية الخاصة، فأفادوا من هذا التلاقح المعرفي، وأثروا العلوم الإنسانية، وساهموا تالياً في رفد حضارة القرن العشرين وإنسانها الذي يتقاطع لديه، في نهاية المطاف، الكائنُ اللغوي والكائن البشري كلاهما.

وسنبيِّن في الجداول التالية التي استقيناها من مدونتنا اللغوية التي جمعنا معطياتها في فقرات سابقة نماذجَ لما يمكن أن يقوم به التحليل النفسي في إرجاع التعابير المستخدمَة والمنسولة من مختلف الحقول إلى عوالم الجنس وما يتَّصل بها. وسنحاول قدر المستطاع المقارنة ما بين الاستخدامات المجموعة خلال إعداد التحقيق اللغوي وتلك المستعادة خلال الأعوام اللاحقة والتي استقيناها من مسموعاتنا ومقروءاتنا لإبراز تطوّر مسار الدينامية التزامنية لهذه المفردات والتعابيرالشبابية المنحى.

أ- التحليل النفسي يُرجِع ما هو سلاح إلى الجنسي

إرهابية (فتاة مسترجلة).

بتحكي رَشَق (فتاة تتكلم بسرعة).

بوز مدفع أو فوهة مدفع، ويقولون في الأردن: (حطّه ببوز المدفع، وفي وشّ المدفع).

بيحكي متل المترليوز (كلام سريع وغير مفهوم).

خارقة، حارقة، متفجّرة (فتاة تتميز بقوة وحضور وتتمتع بجمال مميّز).

راجمة صواريخ (فتاة ذات أنف طويل وغير طبيعي).

صاروخ (نانسي عجرم: أنا «صاروخ» دائم لن يتغير بإذن الله).

عيونِك رادار طيران.

قنبلة موقوتة (إثارة كامنة ولافتة للأنظار).

قنبلة (شاكيرا: قنبلة في لبنان).

كاسحة ألغام (فتاة كبيرة الأرداف).

كان في دَكّة وَقوَّص (للتعبير عن «التحجّم» العقلي عند أحدهم).

متفجرة بشرية (الصورة المجازية منسولة من عالمي البشر والحرب للمبالغة في الإيحاء الدلالي).

مرَوْكِبة (فتاة متعثرة في مشيتها).

ب - إحالة مفردات العلائقية إلى الجنسي:

أحلى ناس

آدمي/آدمية

أزعر (وتصغيرها زعوري).

حظ.

حنون.

خَرج (يقولون: مش خَرْج» أي ليس أهلاً).

دلّوعة (رولا سعد: دلّوعة الأردن).

دوا.

روعة (فائقة الجمال، سبقت الإشارة إليها).

شَطُّورة (أليسا: بيحبّني لأني شطّورة).

صَاحبة، صَاحِبتو (تطور مدلولها).

غندورة (صوت الغندورة ينمّي البندورة).

غير شكل (أحد المعجبين: لا! إليسا «غير شكل»، صوتها حلو، مغنيّة، وكتير عفوية...»).

فرفورة، متفرفرة (صاحبة النشاط المشبوه).

لذيذة (مادونا: أحد السياسيين قال عنّي «لذيذة»).

مخلوقة (كارلا بروني مخلوقة[٣٤]. التعبير ورد في تعليق لرسم كاريكاتوري).

منيحة/حبّة منيحة.

مجلوقة، مهروقة، مجلوغة، مفحّشة.

هبلة (بمعنى عدم معرفتها بالعادة السرية أو بالموضوع المرادف لِـ«الجنس»).

ج- مفردات الناقلات (السيارة، الدراجات، المحركات، المركبات، المدرّعات، إلخ...) والرؤية الجنسية الكامنة:

بلدوزر (عمرو دياب عائد إلى الضوء بقوة البلدوزر).

متل الفولز (ذات أرداف بارزة وتشبه سيارة الفولكسفاكن).

فولكسفاكن وفيراري. لماذا أضيع وقتي في قيادة سيارة فولكسفاكن (امرأة عادية) ما دام باستطاعتي قيادة فيراري (امرأة شقراء جميلة)؟

(٣٤) - مجلة الأفكار، العدد ١٣٢٥، ٢٠٠١/١/٧.

نيو جرسي (ضخمة الجسم).

شو بِسْكلات! (تقال للفتاة الدائمة التحرّك).

مَكَنة (أنا مش مكنة!).

مغناطيس (أنا مغناطيس، أملك attraction).

موتور (المطرب علي حليحل اعتبر الإعلامية زويا صقر «موتور وماشي»).

طرمبه (مصطلح غريب يُستحضر خلال الدردشات الإلكترونية الشبابية).

مجنّطة (لديها زوائد أو حلوة).

فيتاس أرض (قصيرة القامة).

طبّونة (tampon) (وتستخدم أيضاً بصيغة الجمع: «طبّوناتها كبار»).

طبّونية فولفو (سمينة).

خارطة الموتور (فتاة فقدت عذريتها).

فول أوبشن (full option) (لديها مؤهلات كاملة).

مبَوْمرَة (لإبداء السخرية من الفتاة البليدة الذهن والمحدودة الحركة).

بخاخة/بخّاخ (لإبداء الإعجاب).

صوتها أشكمان مفخوت (غليظ وأجشّ).

كابريو (Cabrio) (نوع من السيارات السبور «كشف». ويراد بها الفتاة ذات الملابس القصيرة والمثيرة).

عاملِة حدادة وبويا (ذات ماكياج فاقع).

النكل عَ النكل (تقارب شديد بين الشاب والشابة).

دوبل كاربيرتار (تعمل على خطين، أو تصاحب شابين دفعة واحدة).

فتحة بالسقف (عقل خفيف، للجنسين؛ أو زيّها غير مناسب ومذموم، للفتاة).

الشسّي مفتول (سخرية من الجسد الأنثوي غير المتناسق).

د- المفردات الاقتصادية (التثميرية، التوظيفية، والدّالة على الإنتاج وقوى الإنتاج)، والهوامات الجنسية الكامنة[٣٥]:

إبن/إبنة عائلة ثرية، (friqué) (أي «مريّش» أو «مريِّشة» كما تقول العامّة).

أبو ليرة/إمّ ليرة (توصيف للأشخاص النهمين إلى تكديس المال والذهب في أثره).

بدّو فتّ عملة (أي أن طريقه طويل وتنقصه خبرة متأصلة).

بَعْزَاق (مسرف ومبذِّر، ولا يعرف قيمة لأمواله ولا يحسن صرفها لتدبُّر أحواله).

حَبّيب عِمْلة (المال هو محبوبه ومعبوده ومبتغاه).

عَ الحديدة (être sur la paille) (تبخّرت مدّخراته وبات مكشوفاً وغير قادر على الإيفاء باستحقاقاته).

عَالجَنْط (مفلس، أو معدوم من رفقة مناسبة).

معتّر (بمعنى أنه «لا يملك شَروى نقير» كما يقال في اللغة الكلاسيكية، أو «ما معه نكلة» كما تقول العامّة).

معدوم العافية (عافيته المادية تحت الصفر، وإمكانياته معدومة).

مصلحجي (أي أن مصلحته ـ المالية بالطبع ـ فوق أيّ اعتبار وهي التي توجّه خياراته).

مهري العافية (أوضاعه المادية متعثرة ومصابة باهتراء يصعب التعافي منها).

طفران، منتوف، منفّض، منكّل (تعابير تشترك في الدلالة على من لا يملك من حطام الدّنيا شيئاً ولا حتى «دوبارة»).

---

(٣٥) لاحظنا أن أغلب هذه المصطلحات سلبية المنحى، إذ تشير إلى الوضع الاقتصادي المتراجع أو المتردّي للفرد، وتدل على سوء حاله المالية. ولم نصادف إلا مصطلح «دهب» الذي لا يُستخدم بمعناه الحقيقي بل بصورة مجازية للإشارة إلى فتاة مميزة أشبه ما تكون صفةً بهذا المعدن الثمين والوهّاج والصعب المنال.

وِجّها (وجهها) بيقطع الرزق (أي أن مجرد حضورها نذير شؤم ويحدّ من إمكانية الارتزاق والكسب).

(Bon marché) (نقيض Classe، أي «رخيصة» لا تعرف كيف تتماشى مع أفراد المجتمع المخملي).

ه- الطعام والجنس:

أكلة (elle est à croquer).

بتتّاكل بكلّ شي إلها.

عرض بيتّاكل.

بتتاكل (à croquer)، الصبية «أكلت» مع الشاب منذ شهرين، وهي كالسمكة رمى لها الطعم فأكلته. «وركّب فيلمه» ومن يقوم بالفعل فهو: آكل؟

بتتّاكلي (جملة يقولها المخرج سيمون أسمر لمقدّمة برنامج «استديو الفن: ألسا زغيب).

قشطة[٣٦] تعبير للمعاكسة يستخدمه شاب من منطقة الشياح لمغازلة فتاة من عين الرمانة: «شو يا قشطة، منشطة»[٣٧]. والتعبير يقوله أيضاً الشاب المصري أو الفتاة المصرية لإبداء الإعجاب. كما يستخدم المصطلح نفسه في أغنية «الراب» المصري «أمي مسافرة» الدّالة على موقف الشباب البورجوازي من سلطة الأهل.

كنافة.

محشاية[٣٨].

هبرة (أي مِلْحمِة). و«الهبرة» لغةً هي «اللحمة الحمراء الخالية من العظام».

(٣٦) يُستعاد المصطلح «شو يا قشطة» في العام ٢٠٠٩ على لسان طالب قوَّتجي (نصير للقوات اللبنانية) يغازل صديقته. تحقيق منشور في صحيفة الأخبار، ٢٠٠٩/١٠/٢٧.

(٣٧) ورد التعبير في تحقيق عن شباب الشياح وعين الرمانة، صحيفة السفير، ٢٠٠٢/٩/٢٦.

(٣٨) المصطلح راج خلال الحرب الأهلية اللبنانية للإشارة إلى «قذيفة». وهو يرد في هذا السياق في تعليق للصحافي يحيى جابر: «مش أحسن ما تفقع فيك شي محشاية برّا»، صحيفة المستقبل، ٢٠٠٧/٧/١٢. ولكنه يستحضر أيضاً في أحاديث الشباب في إطار الإيحاءات الجنسية التي يُستعان فيها بأشكال وأنواع بعض المأكولات للإشارة إلى العضو الذكوري.

ليمون (بحبّك قدّ الليمونة).

صدر معمول.

مَلْبَن

سنيورة (لإبداء الإعجاب).

قشطلية.

زبيب (للدلالة على الذكر)/زبيبة. (يرد مصطلح «زبيبة» في التراث الشعبي الأردني بمعنى «بظر المرأة»).

مهلّبية (مصطلح يستخدم للكلام عن المرأة). حيث نسمع ممثلاً يقول: «المهلّبية» (المرأة) تدفع، أو «الزبيب» (الرجل) يدفع، كله واحد». وسبق أن ورد في ثنايا المثل الشعبي، ولكن هذه المرة للدلالة على اللامبالاة «إن شَرّقت مهلّبية، وإن غَرّبت شيشبرك»[٣٩].

موز[٤٠] (وفي مصر مُوْزّة)[٤١].

تفاحة (تفاحة الغواية المحرَّمة)[٤٢].

عسل (عالم الفيزياء أحمد زويل: هيفا وهبي دي عسل).

الخيار[٤٣].

شوكولاته (وفي بيروت شوكولاطة» وفي مصر شوكولاطاية أو شيكولاته).

---

(٣٩) الجمان في الأمثال، جمانة طه، لا دار نشر، دمشق، ط. ١، ١٩٩١، ص ٥٩٥.

(٤٠) بالإضافة إلى قيمته الغذائية وإيحاءاته الجنسية، يبدو أن دلالة أساسية للموز غابت عن مدارك الشباب، فقد ورد أن «الموز» كان معروفاً قديماً باعتباره «طعام الفلاسفة»، صحيفة الشرق الأوسط، ١٢/٧/ ٢٠٠٨.

(٤١) مصطلح للمعاكسة يستخدمه الشبان المصريون للتحرّش اللفظي بالفتيات، صحيفة الشرق الأوسط، ١٦/ ٢٠٠٨/٥.

(٤٢) المقصود بهذه الصورة المجازية النجمة العالمية جنيفر لوبيز، مجلة الحوادث، ٢٠٠٨/٧/٢٥.

(٤٣) الربط بين الفاكهة والجنس: «الإجاصة» التي تشبه المرأة بتضاريسها. «نصف التفاحة» الذي يشبه المؤخرة؛ «الكرز» الذي يشبه الشفاه؛ «الموز» و«الخيار»... كان موضع تعليق الصحافي ناظم السيد الذي اعتبر أن الفواكه يمكن أن تكون مادة للتخيل الجنسي. صحيفة الشرق، ٢٠٠٥/٩/١٤.

بونبونة (إزدواجية التوصيف؛ أي التلاؤم بين رشاقة الشكل ونحافته وطيب المذاق).

مش أكلة (elle n'est pas appétissante).

آيس كريم (لذة التذوق بشكل مثير مصحوبة بإسالة اللعاب لمرآها).

طيّبة .(bonne à goûter) (ينصح بتذوقها).

بقلاوة (مصطلح ورد في مدونات العام ١٩٩٠ للتعبير عن الإعجاب، وفي العام ٢٠٠٨ يستعاد في مصر بصيغة تحرّشية «إيه الجمال ده... يا حلاوة على البقلاوة»، وفي العام ٢٠٠٩ يرد على لسان شاب يتغزل بصديقته:: «البقلاوة» هربان من «السي سويت»).

و- النبات والجنس:

شتلة (استُعيدت الكناية «شتلة» في عنوان لخبر عن عارضة أزياء تغطّي رأسها بمجموعة من السنابل تضفي على تسريحة شعرها طابع الغرابة).

طربون الحبق.

زنبقة، وردة. وترد أيضاً في تعبير غزلي طريف بحيث تغيب المفردة مفسحة في المجال أمام صورة مجازية منسولة من الموروث الشعبي «يللي شمّها إبن عمَّها».

حصرم: وردت ضمن مصطلحات الشباب، واستعيدت في العام ٢٠٠٩ على لسان عارضة أزياء «أشعر أحياناً أنني حصرم في أعين البعض».

أخت المحلوشة: في هذه الاستعارة الأخيرة (أخت المحلوشة) ثمّة صورتان بيانيتان: الأولى: «محلوشة»، اسم مفعول من فعل «حَلَش» بمعنى حَلَبَ النبات أي قصَّه وقطعه، وهي استعارة الزرع للإنسان. والثانية: «أخت»: مجاز مرسل (وهنا المقصود المذمومة ذاتها لا أختها).

مانغو (يريد الشباب بهذا التشبيه المرأة الفائقة الجمال والمشتهاة. واستخدمت هذه الصورة المجازية للكلام عن الممثلة الهوليودية جنيفر كونيللي[٤٤].

(٤٤) مجلة الحوادث، العدد ٢٥٩٢، ٢٠٠٦/٧/٧.

ز- الحيوان والجنس:

فحل[٤٥]. فَحّول (viril). فحُول[٤٦]. عصفور[٤٧]. يعرف هذا الصطلح انزياحاً نحو الحقل السياسي حيث نقرأ سؤالاً موجّهاً من أحد الصحافيين إلى أحد النواب حول خلفية تصرُّف مجلس النواب. بخصوص سقوط قانون خفض سن الاقتراع إلى ١٨ سنة: (نكّيح متل عصفور الدوري؟)[٤٨].

وحش (يا وحش، ويقال التعبير للتقرّب من فتاة فائقة الجمال).
وحشة (كارول سماحة «وحشة» المسرح أكلت زنوبيا ورأس الجمهور).
حبشة (ويستخدم المصطلح في الفرنسية بصيغة: c'est un dindon).
صقر وعصفورة (هيفا الصقر ومروى القمّورة).
طريدة (يبحثون عن اصطياد طريدة أمام مجمّع سينمائي).

حصان (خبيرة التجميل إيليان عيد: «أنا أجرأ صبية ويشبّهونني بالحصان ويقولون عني «شو هالحصان» ربما لأنني رشيقة وطويلة القامة»).
(شيل يا حصان) (للتغزّل).

غزالة[٤٩]. غزال (أبو قرون). وثمّة تعبير يقال في معرض التغزُّل: (نطّ يا غزال)، وآخر في معرض اللوم: يا بادل غزالك.

---

(٤٥) ـ يتخطى مصطلح «فحل» في العام ٢٠٠٤ سقفه الدلالي ليطال لعبة حظ معروفة، وذلك حينما يرد في معرض تحليل لإعلان عن سحب اللوتو حيث تردّد في الإعلان الترويجي عبارة «مرتين بالأسبوع»، فهو يأتي «فحلاً» وفق ما جاء في تحقيق منشور في صحيفة البلد، ٢٠٠٩/١٠/٤.

(٤٦) ورد المصطلح بصيغة الجمع «فحول» في خبرين منشورين عن ثلاث «بقرات» (نساء) يرغبن في تلبية رغباتهنّ، لذا استحضر المضيف لهنّ عشرة «فُحول» لقضاء السهرة في منزله في الأشرفية. كما تكرّر المصطلح في عنوان خبر ثانٍ «الـ (Gay) اللبناني يشجّع «فحول» القاهرة على رفع أسعارها»، مجلة نادين، العدد ١١٧٦، ٢٠٠٣/٧/٢٨.

(٤٧) يتخذ مصطلح «العصفور» دلالة جنسية واضحة في لغة الشاذين جنسياً أو المثليين، وذلك في تحقيق منشور عن «الطيور السمينة» في «عشّ... في منطقة البوشرية» (ضاحية بيروت الشمالية). إذ تطلق التسمية على المفعول به أي (المُلاط)، الذي يلعب دور الأنثى، في حين تطل تسمية «الصياد» على الفاعل (أي اللائط). وردت التسميتان في تحقيق منشور في مجلة «كوكتيل»، ٢٠٠٠. كما يرد أيضاً في عنوان لخبر عن أحد ملوك الجمال «ريّش العصفور وطار». مجلة نادين، العدد ١٥٢٢، ٢٠١٠/٣/٢٢.

(٤٨) مجلة الدبور، العدد ٣٠٦٤، ٢٠١٠/٢/٢٦.

(٤٩) يرد مصطلحا «غزال وغزالة» عنواناً لتعليق صحافي يستعرض كاتبه نماذج من المجتمع أحدهم سمين «لا يهيم في حبّ غزالة»، وثانيهما «سمسار لا يصيد غزالاً لغزالة»، وثالثهما «ذئب لا ينهب من غزال كي يوهب... غزالة». مجلة المسيرة، العدد ١٠٧٠، ٢٠٠٦/٥/١.

أرنب (إسحب أو إلعب يا أرنب) وتقال في معرض التغزّل بفتاة قصيرة القامة. بطّة.

فرس/أفراس «كأنهن أفراس» (صورة مجازية للإشارة إلى عارضات الأزياء).

فيل (شيل يا فيل)، وتقال للتغزّل.

وزّ (هزّ يا وزّ) للتغزّل.

سمكة (شو أنا سمكة حتى أبقى عايش بالبحر).

خروف[٥٠] (رجل سهل الانقياد للآخرين لا سيّما زوجته؛ أما الصيغة الفعلية «خَوْرفته» التي ترد على لسان إحداهنّ فتعني: استخفّت بقدراته وعاملته كخروف ضعيف لا حيلة له؛ هذه الصورة المجازية تطلق على الجنسين).

كلب (شباب مصريون يكتبون على الـ «شيرت»: أنا كلب وعايز عضمة).

أفعى (فتاة الإعلانات: قصيدة أم أفعى).

رفّ (مجموعة من الحريم، وهي تُستخدم لدى كلامهم عن «رفّ حمام»).

قطّة (أمل حجازي: قطّة لبنان).

فراشات. خفيفات كالفراشات (صورة مجازية للإشارة إلى عارضات الأزياء). فراشة: («فراشة الضوء»: النجمة السينمائية كايت موس).

مقاربات مع بيئات ثقافية أخرى

ومتى رغبنا بمقارنة هذه المصطلحات الشبابية الغزلية الرائجة في لبنان، والتي رصدناها في الثمانينات، وتلك التي جمعناها خلال التسعينات وفي مطلع هذه الألفية، مع نظائرها في بيئات ثقافية أخرى، نجد الجزائري إلى وقت قريب (٢٠٠٦)، إذا

(٥٠) الخروف في الموروث الشعبي الفلسطيني يدلُّ على الرجل السهل الانقياد للآخرين لا سيّما زوجته. ومتى وصفوا طفلاً بِـ«خروف» فهو برأيهم «سمين جميل ونظيف ورشيق». القاموس العربي الشعبي الفلسطيني، ١/٢٥٣. ولكن المصطلح يعرف انزياحاً دلالياً حينما يستحضر في عوالم سفلية. فلمصطلح الخروف معنى مختلف في مجال الدعارة؛ إذ يبدو أنه يستخدم للدلالة على «زبون مِدْهِن» قابل لسلخ لحمه وجيبته بالطبع! وترد عبارة «باعِتْلِك «خروف» اسلخيه بالسّعر» على لسان أحد القوّادين. وهي شيفرة متفق عليها بين هذا القوّاد والمومس المعنية. انظر تحقيقاً عن «الدعارة في لبنان»، صحيفة الأخبار، ٢/١٠/٢٠٠٩.

أراد مغازلة حبيبته وصفها بـ«الحمامة»، أو «الحجلة» أو «الغزالة»، أو «اللبوة»[٥١]، أو «الوعلة» (وهي في اللهجة الجزائرية «العصفورة»). وهي في المقابل إذا رغبت في الردّ باللغة نفسها قالت: «يالصيد» (أي الأسد)، أو «يالنسر» باعتبارهما معروفين بالقوة والبأس. ومَنْ توسَّمت فيه الرقة والعذوبة قالت عنه: «يالغزال»[٥٢].

في سياق المقارنات المعقودة بين الاستخدامات المماثلة والرائجة في مختلف البيئات الثقافية، نلاحظ أن النسر يرمز ـ عندنا وعند الآخرين ـ إلى الشموخ والاعتداد والصلابة. من هنا استخدم كصورة مجازية، للأنثى والذكر معاً، وذلك في عنوان صحافي: أوباما – كلينتون نسر برأسين[٥٣]. وينسحب الأمر على «اللبوة»؛ فقد حضر المصطلح في سياق لبناني ساخر، وعلى لسان رجل ختيار ومسكين، عنّفته زوجته بعدما شاهدت حلقة في برنامج المصارعة العنيفة «غلاد بيتر» وعاشت أجواءها. فلم يجد الزوج المحبط جواباً لتهدئتها والتقرُّب منها سوى قوله «رَحْ سَمّيكِ «لبوة لبنان»[٥٤].

ولا تغيب الاستخدامات المصرية في هذا المجال، ففي مصر يبدو أن مصطلح «البطة» حاضر في قول الشباب «بسّ، استنّي يا بطّة»، وكذلك الأمر بالنسبة إلى «الوزّ» في قولهم «هزّ يا وزّ»[٥٥]، ويقصد بالتعبيرين النساء أو الفتيات المصريات اللواتي يتمايلن بغنج ودلال بأجسادهنّ. وهذان التعبيران الساخران المنسولان من عالم الحيوان، باتا يسببان إزعاجاً وغضباً للمصريات باعتبارهما يدخلان في باب التحرّش اللفظي أو «المعاكسات الوحشة وغير اللائقة» كما تقول فتاة مصرية تعَّرضت لهذا النوع من التحرّش.

****

في إطار متابعتنا لرصد التزامن الدينامي لهذه المصطلحات في لغة الشباب

(٥١) وتنقلب دلالة هذا المصطلح في السودان، إذ يقال «لبوة» عن المرأة في معرض ذكر سيئاتها، «الإنسان... واللسان السوداني»، ص ١٤٦.

(٥٢) تحقيق عن فن الغزل على الطريقة الجزائرية، صحيفة الشرق الأوسط، ٢٠٠٦/٧/٢٦.

(٥٣) صحيفة المحرر العربي، العدد ٦٧٨، ٢٠٠٨/١٢/١١.

(٥٤) دليل النهار، ٢٠٠٩/١٠/٢٣.

(٥٥) ورد المصطلحان في تحقيق بعنوان «شوارع مصر بعيون امرأة»، صحيفة الشرق الأوسط، ٥/١٦/ ٢٠٠٨.

اليوم، وفي ختام هذه المقارنة بين جنسي البشر والحيوان، التي استحضرنا نماذج رائجة منها، نشير إلى ثلاثة مصطلحات من هذا النمط رصدناها في معرض الكلام عن فنانين ومشاهير. إذ نقرأ في تحقيق مطوَّل عن «حروب إلغاء فنية» (٥٦)، أن بعض الفنانات يتحوَّلن إلى «ذئاب» كاسرة، وأخريات إلى «ديكة»(٥٧) يتقنَّ فنَّ الصياح. والمرة الوحيدة التي يؤتى فيها على ذكر «التماسيح» الذكور حينما يكنّى «أغنى الأغنياء في الدول العربية والأجنبية» باعتبارهم «ثلاثين تمساحاً» شاركوا في سهرة خاصة شهدتها شقة ثري عربي في منطقة السوليدير(٥٨). ومن باب العلم بالشيء، فمتابعتنا لمسار استخدام هذه التوصيفات المعتمدة في الإعلام ليست مقصودة بحدّ ذاتها، بل لأنها تنطلق أساساً من الفكرة المصوغة ومفادها أن التعابير الشبابية وبحكم تداولها علانية، لم تعد حبيسة العلاقات الشبابية المقفلة، بل خرجت إلى العلانية وباتت رائجة على ألسن وأقلام صحافيين وسياسيين وفنانين ومعلنين، وخرجت بذلك من مستوى الشفاهية إلى مستوى التدوين فالشيوع التعبيري الأرحب.

أحكام تلخيصيَّة عامة

وننهي هذا البحث بستة أحكام تلخيصية اتبعناها بخاتمة، توجز مجتمعةً رؤيتنا اللسانية لهذه الظاهرة اللغوية الاجتماعية التي رصدناها، في فترة زمنية سابقة، في صفوف شبابنا وشاباتنا، والجامعيين منهم تحديداً. وكما رأينا فبعض مصطلحاتها لا يزال، بعد عقد ونيّف، يرصّع كلام شبابنا وينساب في تعليقات صحافيينا، ويستعاد عبر خواطر سياسيّينا، وتصريحات فنانينا ناهيك باندراجه في مضامين بعض الإعلانات الاستهلاكية وتعليقات الكاريكاتور. ونشير إلى أن المدوّنة المجموعة من مختلف المصادر المتاحة شكلت الرافعة الأساسية لعملنا البحثي الميداني الذي تابعناه على مدى العقدين الماضيين عبر فرق عمل طلابية، والذي أوفى إلى إنجاز هذه الدراسة التي قيّض لنا أن نخرجها إلى النور في العام ٢٠١٠.

أ- لغة الشباب: إنتاجاً وتسويقاً ومعايير تداول:

من يُنتجُ هذه اللغة الخاصة ويسوّقها في أوساط الشباب؟ الشباب أنفسهم

(٥٦) - التحقيق نشرته مجلة الشراع (العدد ١١٩١، ٢٠/٦/٢٠٠٥).

(٥٧) - «الديك» صفة تسبغ على الرجل للدلالة على رجولته وقوة شخصيته.

(٥٨) - مجلة نادين، العدد ١٤٩٩، ١٨/١٠/٢٠٠٩.

بالدرجة الأولى كما يبيّن الاستبيان. فهناك طلّاب ينحتون يومياً مفردات وتعابير للتواصل فيما بينهم وفي حدودٍ ضيقة. والمفردات هذه ذات حقل دلالي محدود مما يعني رغبة هؤلاء في أن تكون لهم خصوصيتهم التي لا يشاركهم فيها غيرهم من الفئات. إلى ذلك، فإنّ وسائل الإعلام وبخاصة الفضائيات، وأقلُّ من ذلك، الصحافة والإعلانات، تُسهم في نشر هذه اللغة الاصطلاحية الخاصة اعتقاداً منها بقدرتها على الانتشار. ووسائل الإعلام هذه هي التي تنهل من هذه اللغة وتروّج لهذه المفردة أو تلك، فيبقى القسم الذي ثبتت صلاحيته، ويتعدّل بعضه، ويختفي الآخر. أما مفردات الحرب التي وردت في سياق الدراسة فهي ألفاظ شوارد سرعان ما تتلاشى في زمن السلم وعودة الحياة إلى طبيعتها العادية ولكنها تبقى بدلالات أخرى (جنسية، تشنيعية، سياسية...) مع ملاحظة أنه كلما استخدمنا تلك المفردات الحربية تساقطت دلالاتها ذات البُعد المأساوي لحساب السياق الجديد الساخر أو اللامبالي أو الناقد الذي ترد فيه.

ب- التداخل مع عالم الحيوان

لم يغب عالم الحيوان، إن بتسمياته المباشرة أو بالصور المجازية المنسولة منها تلك أو المحتضنة لأوصاف وسمات تعود للطيور (عصفور، بطّة، وزّة، حبشة) والحشرات (فراشة) والحيوان (بغل، فحل، غزال، أرنب، حصان، فرس،...).

اللجوء إلى مشبّهات به من عالم الحيوان قديم العهد في موروثنا الثقافي واللغوي. وقد استعرضنا نماذج للانزياح الدلالي الذي أصاب هذه المصطلحات على ألسنة مستخدميها الشبان أو الصحافيين أو الكتّاب. وينسحب الأمر على سائر المصطلحات التي تعود لعوالم الحيوان والطير، ويستحضرها المرء في إطار إقامة التشبيهات والموازنات مع البشر مع إيحاءات لا تخلو من الدلالة الجنسية، مباشرة كانت أم مستترة. ويتفرّد المصريون في الكناية عن المليون جنيه باعتبارها «أرنب»، ربما لأنهم يقولون إن الملايين تتكاثر حينئذٍ كالأرانب، والله أعلم[٥٩].

ج- التداخل مع عالم الأطعمة والمذاقات

كثيرة هي المصطلحات والتعابير التي تتشارك المعاني والدلالات بين عالمين

(٥٩) -الكنايات المصرية العامية، أشرف عزيز، دار الحضارة للنشر، ط. ١، ٢٠٠٥، ص ٢.

مختلفين هما عالم الأنوثة وعالم الأطعمة والمذاقات. فانطلاقاً من مفهوم الأكل أو التذوّق، والذي يبدو أنه يتحول شيئاً فشيئاً إلى ثقافة اشتهاء والتهام، لاحظنا تواتر مفردات تبطن في ثناياها النزوع لتذوق مفاتن الجنس الآخر باعتباره «أكلة» مفضّلة أو «حبّة نضيفة» أو «مانجا وأناناس وخوخ» كما تقول كلمات إعلان تلفزيوني، أو «نعنع وخسّ» كما جاء في جملة غزلية شبابية قرأها رواد «الداون تاون» قرب مبنى ستاركو «إنتِ النعنع، إنتِ الخسّ، إنتِ حبيبة قلبي وبسّ». ويتكرّر ذكر الخسّة، ولكن على لسان عجوز ثمانيني اقترن بفتاة ثلاثينية، معتبراً أنها «مثل الخسّة» لجهة الطراوة والعذوبة! وفي الإطار نفسه يذكر عنوان صحافي عن ملكة جمال الإنترنت للعام ٢٠٠٣ «إذا أردت أن تأكلها... فبعينيك فقط»(٦٠). ويتابع الخبر مستحضراً مصطلحات الأكل وما إليها: «إنها بالتأكيد أفضل طبق قدمته مطاعم ماكدونالدز في تاريخها الإمبراطوري». وتنتهي المسألة عند أمنية معلقة «فإذا كان حظك كبير اعتبرتك الملكة طبقها المفضل....». في هذا العالم أنت مدعو للالتهام بعينيك ولكنك قابل كي تكون طبقاً مفضلاً للجنس اللطيف. والطريف هنا أن الصورة المجازية التي قُدّمت عن ملكة الجمال هذه استحضرت بدورها من عالم «fast - food» أو المأكولات السريعة التي باتت بدورها ثقافة عابرة للقارات وللشرائح العمرية والاجتماعية بالطبع.

د- تداخل الأكل والجنس

إن قراءة دقيقة للتعابير التي تتصل بعالم المائدة/الاستهلاك يشير إلى الإيحاءات الجنسية التي تحملها هذه التعابير وتثقل بها أحياناً كثيرة. فتعابير مثل «أكلها»، و«بتتاكل» و«أكلة» (à croquer) ومثيلاتها المتداولات: «رأس العبد»(٦١) tête de naigre، «قشطة، «قشطلية»، «شوكولاته»، «كنافة»(٦٢)، «فريز» أو «فراولة»(٦٣)،

(٦٠) - مجلة المحرر، العدد ٣٣١، ٢٠٠٢/٢/١.

(٦١) - في العام ٢٠٠٩ تشكلت مجموعة، «RasI 3abed» « المؤلفة من ١٦٠٠ شخص للتعبير واعتمادوا اسم «راس العبد» إشارة إلى صور جنسية، تحوّل منذ فترة إلى «طربوش البلد» لما يحتويه الاسم من عنصرية. وتوضح المجموعة على موقعها الطريقة المثلى لأكله. انظر زاوية «فايسوبك»، «راس العبد» أطيب شي، صحيفة الأخبار، ٢٠٠٩/٧/١٤.

(٦٢) باتت الكنافة الحلوى، اللبنانية الأصل، الطازجة والساخنة، خير رسول يغزو العالم. ولهذه الغاية أُعدّ شريط عن «تقليد الكنافة اللبنانية المقدس ـ طعام الآلهة»، تحقيق بعنوان «غزو العالم عبر الكنافة»، صحيفة الأخبار، ٢٠٠٨/١٢/١٧.

(٦٣) ورد المصطلح في عنوان صحافي «فراولة دبي» كلام ملوكي، (حفلة انتخاب ملكة جمال لبنان والزيارة إلى دبي)، صحيفة السفير، ٢٠٠٤/٦/١٨.

«صدر معمول»، «مهلّبية»، وسواها... تستلزم عودة إلى الميثولوجيا والأحلام والرموز والتعابير الشفهية الشائعة، كما إلى عِلْمَي الإناسة والتحليل النفسي. ومن هذا القبيل فإنّ لتفسير الأحلام أواليات تفسير التعابير نفسها. وفي محصِّلة البحث يمكن أن نصل إلى المعنى العميق، وكشف المستور والمُتَضَمَّن والمسكوت عنه. فالمعنى الأساسي لتعبير «أكلها» هو في الحقيقة «ضاجعها». وهنا بالذات يتقاطع التحليل النفسي مع اللسانيات. ولم يغب هذا الأمر عن التعليق الأسبوعي لكاتبة عربية معروفة لفتتها العبارة التي يحلو للبنانيين ترديدها كاللازمة الموسيقية، وهي تتبدل مع مناخ البلد. فبعد «التنمير» أو «التشاوف» تتوقف عند كلمة «أكلة» المستخدمة بمعنى «غنيمة»، وتلاحظ أنها تقال عن الصفقة والمرأة الجميلة وسواهما[٦٤]. والصيغة الفعلية حاضرة كذلك في هذه المقامات؛ إذ نقرأ في مذكرات شاب عن فترة الستينات أنه قلّد الفتاة «الشيك» التي جلست يوماً قربه في المقهى لجهة تناول قطعة كاتو. وفي تجربته تراءى له كأنه التهمها. وهنا تصاعد دلالي من مجرد «الأكل» إلى «الالتهام»[٦٥].

هـ- تداخل النبات والفاكهة والجنس

عديدة هي المصطلحات العائدة لمختلف النباتات وأصناف الفاكهة، والرائجة على ألسن شبابنا، في المرحلة التي جرى خلالها التحقيق الميداني. هذه المصطلحات تحمل في طياتها، لا بل في دلالاتها المقصودة، تلميحات وإيحاءات جنسية. وقد عددنا البعض منها (شتلة، زنبقة، طربون الحبق، وردة، حصرم، ليمونة «بحبك قدّ الليمونة[٦٦]»...) واستوقفتنا صورة مجازية وردت في تحقيق عن جنس القرابى» يعتبر فيه والد مغتصب ومتهم بارتكاب الفاحشة أن ابنته «أشبه بشجرة الفاكهة، ومن حقي أن أتذوقها قبل أن يفعل الآخرون»[٦٧]. وفي تعليق له بعنوان «الفاكهة والجنس»[٦٨]، يورد الصحافي ناظم السيد سلسلة من التشبيهات المقارنة بين أعضاء المرأة وأنواع الفاكهة «فالإجاصة تشبه المرأة بتضاريسها، ونصف التفاحة يشبه

(٦٤) تعليق للأديبة غادة السمان، مجلة الحوادث، ١٩٩٨/٢/٢٠.
(٦٥) اعترافات شاب من اللفيف البيروتي الناصري في الستينيات، صحيفة النهار، ٢٠٠٩/١٠/١٨.
(٦٦) صحيفة الحياة، ١٩٩٩/٢/٩.
(٦٧) صحيفة الديار، ٢٠٠٩/٣/٣١.
(٦٨) صحيفة الشرق، ٢٠٠٥/٩/٢٤.

المؤخرة، والتوت يشبه الحلمات، والكرز يستحضر لوصف الشفاه، والملفوفة تصح لتشبيه مبتذل والرمان كناية عن الثديين، والموز والخيار معروفة قصتهما!...).

و- الانزياح الدلالي اللاحق بمصطلح «فحل»

لفتتنا الدلالات المتعدّدة والمتمايزة التي لحقت بمصطلح «فحل» بصيغتي الإفراد والجمع «فحول». وفي عودة إلى تراثنا اللغوي العربي نجد في مادة «فحل» أن الخليفة عمر (ر) لما قدم الشام تفحّل له أمراء الشام؛ أي أنهم تلقوه متبذّلين غير متزيّنين، مأخوذ من الفحل ضد الأنثى، لأن التزيّن والتصنّع في الزيّ من شأن الإناث والمتأنثين والفحول لا يتزيّنون.

هذا في ما سبق من موروث لغوي، أما في الواقع الراهن، فقد رصدنا العديد من الدلالات العائدة لهذا المصطلح والتي تتغيّر وفق السياقات، فهو حاضر للإشارة إلى الإعجاب والتقدير، وهو يتخذ أحياناً دلالات جنسية مباشرة أو إيحائية، كما أنه تحوّل في فترات زمنية إلى محطة كلامية عامة أو شبابية. وعلى أي حال فهو نموذج للمصطلحات التي استخدمت ولكنها عرفت انزياحات دلالية عديدة.

خاتمة

وفي المحصِّلة نقول إن التعابير الشبابية التي عرضنا نماذج لها، بدلالاتها العامة وبخاصة النفسية والاجتماعية منها، بمعانيها المستورة أو المعلنة، ببناها اللسانية العربية والأجنبية والبين بين، لا تخرج في الإجمال عن كونها نسقاً تعبيرياً موارباً وموازياً يعمد جيلنا الشاب وصحافيونا، إلى إنتاج مفرداته واستهلاكها، تعبيراً عن رغبة دفينة في استحضار معالم خطاب غير مكشوف وتجاوز دائرة الممنوع والمحرّم فيما يتصل بحقول دلالية شتى، منها الحربي المؤلم الذاهب والمضمحل باضمحلال أسباب نشوئه، ومنها الاستهلاكي المباشر، ومنها الثقافي الرائج، ومنها الجنسي المكبوت، ومنها التقني والعولمي الطابع. أليست اللغة في نهاية المطاف جزءاً من المتعة/الترف الإنساني؟

ننتهي إلى أن ثقافة ما بعد الكتاب، ثقافة المرئي والمسموع، والتلفزيون تحديداً، وثقافة الانقطاع التي عرفناها خلال العقدين الماضيين للقرن المنصرم، ولا زلنا نشهد تداعياتها لتاريخه، هي في الحقيقة ثقافة غير مرجعية ولم تراكم تراثاً أصيلاً، بل أوفت إلى تغييب الثقافة بمعناها المعرفي والشمولي، وأحالتها إلى ثقافة

شفهية خاطفة واستهلاكية وُسمت باعتبارها ثقافة الـ fast food أي الوجبات الجاهزة والسريعة. ومنهم من توسّع في استخدام الصور المجازية، فاعتبرها في مطلع الألفية الثالثة ثقافة «الدليفيري» أو «السمّ اللذيذ» الذي تحوّل إدماناً لدى العديدين[٦٩]. فوسائل الإعلام التي تكاثرت كالفطر وتعاظم تأثيرها تحوّلت إلى مراكز استقطاب حصرية وأحادية النظرة والتوجّه. كما أضحت شبه مرجعيات فكرية وفنية وإعلامية لجماهيرها، تضخّ «معرفة» على قياسها، وتجتذب أجيالاً من الشباب والناشئة ينظرون إليها كمناجم لا تنضب للقيم والأفكار والأعراف والتعابير والأنساق الإنسانية.

وما قمنا به من بحث ميداني تناول الشباب وتعبيراته لا يني أن يكون محاولة أولى لاستقراء الواقع بتجلياته الكلامية المنطوقة في سبيل إنتاج معرفة حية فاعلة. وتمثَّلت غايتنا في عرض لوحة عن الواقع اللغوي المعيش تدليلاً على دور اللسانيات الوظيفية في لحظ الواقع وكشف أنساقه اللغوية وقدرات أبنائه – وشبابه تحديداً – على تعزيز إمكانياتهم التعبيرية للتلاؤم مع مستجدات العصر، وذلك في مجتمع متنوع ومنفتح مثل مجتمعنا اللبناني.

نستعيد هذه المعطيات الشبابية التغزلية اليوم ـ بغضّ النظر عن جرأتها أو خروجها على السياق العام ـ على سبيل التسجيل والتذكير والاعتبار، والمقارنة ما أمكننا ذلك، وهي تذكّرنا بأن الميل لاستخدام المفردات اللغوية ذات الطابع الشبابي والعفوي ظاهرة معروفة عندنا وفي كلّ المتّحدات الاجتماعية اللغوية المنفتحة. وهذه الأخيرة معروفة جداً في الغرب الأميركي تحديداً، حيث لاحظ صحافي لبناني أن الشعر الأميركي كأي بضاعة أخرى، يتغذّى على مصادر ومكوّنات وهويات متعددة ومختلفة. فالمفاهيم في أميركا حاضرة بقوة في الحياة اليومية، والمفردات مندلقة في الشوارع والبارات والجسور والأنفاق والزحام البشري...[٧٠] وهذا لا يخرج بالطبع عن أحوال وظروف انتعاش لغة الشباب.

وإذا كان للسانيات من أهمية فقد أعطت اللغة المنطوقة قسطها الطبيعي من الاهتمام والملاحظة والاستنتاج، بعد أن كان اهتمامنا اللغوي السابق، والحالي إلى

(٦٩) أنظر تحقيق «السمّ اللذيذ... عندما يتحول إدماناً»، صحيفة الحياة، ٢٠٠٩/٩/٣.

(٧٠) تحقيق بقلم سامر أبو هواش، صحيفة الأخبار، ٢٠٠٩/٦/١٠.

حدٍّ كبير، ينصبّ على اللغة المكتوبة ومدوناتها. لقد تميزت اللسانيات في هذا المجال، من خلال تناولها اللغة المنطوقة وإعطائها الأولوية على اللغة المكتوبة، ذلك أننا نعتبر أن التغيير والتطور اللغوي يصيبان اللغة بشكل أساسي عن طريق الكلمة المنطوقة والعفوية. من هنا لا يمكن للباحث أن يرصد مفاعيل التغيير والتطور كليهما إلا من خلال اشتغالية اللغة .(fonctionnement de la langue) والاشتغال هنا هو ذاك الذي يصيب الشكل المنطوق أكثر مما يصيب الشكل المكتوب. ومنطوق الشباب الذي تدور حوله دراستنا يندرج في سياق هذه الأبحاث اللسانية الاجتماعية المستجدّة.

أما ماذا يستمر وماذا يبقى مما كان سائداً من مصطلحات وتعابير، إن خلال الحرب الأهلية اللبنانية، أو في الفترات السلمية المنصرمة، فبحث آخر يستدعي تأملاً مزيداً. لكن ما يمكن قوله إن البيئات الجديدة في عالم التقنيات المتسارعة للتراسل الإلكتروني، وتلك العائدة للإعلام، والمرئي منه تحديداً، ستؤثر تأثيراً كبيراً – وهي تفعل الآن وبشكل ملحوظ ـ في صنع واستحداث بيئات مستجدّة ومتغيّرة من أنماط السلوك والتعبيرات الإشارية واللفظية، والاختصارية أو المكثفة، هي بالتأكيد غير لغة الحرب الآفلة، والتداعيات التي نشأت عنها، بل متجاوزة لها؛ لكنها من الناحية القيمية والدلالية قد لا تكون خيراً منها بكثير.

******